# الامتزاجات اللغوية في شمال إفريقيا عبر التاريخ

# Linguistic mixing in North Africa through history

# Les mélanges linguistiques en Afrique du Nord à travers l'histoire

**د. جميلة معمري**
جامعة الجزائر2

**د. نعيمة زوبيري**
جامعة الجزائر2

**تاريخ الإرسال:** 27-11-.2019- **تاريخ القبول:** 03-02-2020 - **تاريخ النشر:** 05-05-2021

## ملخص

تعيش بلدان شمال إفريقيا تنوعا لغويا كبيراً، لغات أم بتفرعات لهجية مختلفة ومتعددة، لغات وطنية ورسمية، ولغات أجنبية أيضاً. تتزاوج هذه اللغات وتتمازج لتثمر وضعية لغوية فريدة من نوعها. وعن متكلمين بكفاءات قلما يتصف بها أمثالهم في مجتمعات أخرى، فهم قادرون على استعمال سجلات لغوية متنوعة، مستعملين في ذلك كل الأساليب، من محاكاة لغوية واستعارات ومزج. وذلك من خلال الانتقال من لغّة إلى أخرى من أجل التعبير عن أفكارهم وحالاتهم النفسية والاجتماعية، هذه الوضعية ليست وليدة اللحظة وإنما هي نتاج تاريخ طويل من المزج اللغوي له ظروفه التاريخية والثقافية. لقد اتفق الباحثون على تسمية هذا المزيج باللهجات المغاربية، إن موضوع الامتزاج هو مسألة واسعة، قد يتطلب دراسة تاريخية، كون المفهوم يحتوي على أبعاد متعددة منها ما هو أنثروبولوجي وسوسيولوجي وهو ما سنتناوله من خلال محاولة فهم عوامل، وديناميكية المزج اللغوي عبر التاريخ.

**الكلمات الدالة:** حوض البحر المتوسط؛ الامتزاجات اللغوية؛ التعددات اللغوي؛البلدان المغاربية؛إفريقيا؛ اللغة.

## Abstract

North African countries have a great linguistic diversity, languages or different linguistic branches, national and official languages, and foreign languages as well. These languages combine and blend, producing a unique linguistic position. And speakers with skills that are rarely characterized by their counterparts in other societies, they are able to use various linguistic records, using all methods, from language simulation, metaphors and blending. By moving from one language to another in order to express their ideas, and their psychological and social situations. This situation is not the result of the moment but rather the result of a

long history of language mixing with its historical and cultural conditions. The researchers agreed to name this combination in the Maghreb dialects. The subject of mingling is a broad issue that may require a historical study. The concept contains several dimensions, including anthropological and sociological, which we will address by trying to understand the factors and dynamics of linguistic fusion throughout history.

**Keywords:** Mediterranean basin; linguistic mixing; multilingualism; Maghreb countries; Africa.

**Résumé**

Les pays d'Afrique du Nord connaissent une grande diversité linguistique, des langues nationales et officielles, ainsi que des langues étrangères. Ces dernières se combinent et se mélangent, produisant une situation linguistique unique. Les locuteurs ayant des compétences qui sont rarement caractérisées par leurs homologues d'autres sociétés, ils sont capables d'utiliser divers registres linguistiques, en utilisant toutes les méthodes, de la simulation linguistique aux métaphores et en mélangeant les codes. En passant d'une langue à une autre afin d'exprimer leurs idées et leurs situations psychologiques et sociales. Cette situation n'est pas le résultat du moment mais plutôt le résultat d'une longue histoire de la langue se mêlant à ses conditions historiques et culturelles. Les chercheurs ont convenu de nommer cette combinaison, les dialectes du Maghreb. Le sujet du mélange est une question vaste qui nécessite une étude historique car le concept contient plusieurs dimensions, notamment anthropologiques et sociologiques, que nous aborderons en essayant de comprendre les facteurs et les dynamiques du métissage linguistique à travers l'histoire.

**Mots-clés:** Afrique; pays du Maghreb; bassin méditerranéen; métissage linguistique; multilinguisme.

**مقدمة**

يعتبر حوض البحر المتوسط من أهم وأكبر منابع الحضارات، فهو حسب تعبير ميشال كيتو، أحد أعرق الخزانات الإنسانية في مجال اللغات والأدب، لقد ساهمت حضارات البحر المتوسط في كتابة التاريخ إذ تواجدت على ضفتها لغات راقية، حضي البعض منها بأدوار دينية عالمية. (Quitout, 2007, p13) أما عن امتزاج العنصر البشري، فحسب المعلومات المستمدة من عصور ما قبل التاريخ يعتبر التواجد الإنساني قديم في المنطقة المغاربية، إذ تشير الدراسات إلى تواجد الإنسان منذ العصر الحجري القديم العلوي. وتشكل البلدان المغاربية بحضاراتها وثقافاتها جزءاً من الثقافات والحضارات الإفريقية، إذ يرى علماء الأنثروبولوجيا أن الأصناف البشرية الافريقية متنوعة فآيا كان

الظرف الزمني الذي ظهر فيه سود إفريقيا وتكاثروا، لم يكن هناك بد من التسليم بأنهم خالطوا رجالا من الصنف الابيض اصلهم من إفريقيا الشرقية أو من الشرق الأدنى أو من أجداد البرابرة.

ويدعى هؤلاء الرجال، حامي ـ ساميين (نسبة إلى حام ابن نوح) لكي تتميز نسبتهم الى سام، على الأقل فيما يتعلق باللسان لأنهم من حيث تصنيفهم فهم ينتسبون إلى البحر المتوسط. وفي أيامنا نرى أن التجمع الغربي أو الشمالي من الحامي ـ ساميين يشتمل على العرب الذين جاءوه في غزواتهم التاريخية، وعلى سكان ليبيا تونس والجزائر والمغرب، وعلى شعوب الصحراء الموريتانيين والسودانيين والمور والطوارق، وعلى سكان الصحراء الوسطى والتوبو. ونتيجة لهذا التزاوج على درجات مختلفة بين الساميين والسود، كان الحاميون الشرقيون الذين سكنوا مصر (نصارى ومسلمين)، وكان الحاميون في بيدجا، والنوبة والحبشة والصومال وغيرها، أما بالنسبة للغات التي تكلموها نستطيع أن نقسم الحامي ـ ساميين إلى ثلاث فئات: السامية، والبربرية، والكوشية وهو تعبير استعمل في مصر القديمة للدلالة على كل البلاد الواقعة فيما قبل الشلال الأول. (بولم، 1982، ص 189)

لا يقتصر غنى إفريقيا فقط على الثروات المادية بل هي غنية بثقافاتها وبلغاتها أيضاً، هذه اللغات التي تشكلت عبر تعاقب الأزمان وتعاقب المارين بها والمستقرين فيها، عن طريق ما سماه علماء اللسانيات والأنثروبولوجيا بالامتزاجات المغاربية، والتي هي خاصية ثقافية تتميز بها المنطقة.

إن مسألة اللغات في شمال إفريقيا هي رهان حاسم ومجال للصراعات، لما عاشته المنطقة من استعمار استيطاني كان هدفه الأول هو طمس الهوية الثقافية للشعوب القاطنة على الضفة الجنوبية لحوض البحر المتوسط. إذن فإن تاريخ هذه المنطقة يشهد على غنى وثراء ثقافاتها على قدر ثراء تربتها، كما يسجل عبور واستقرار المارين بها تاركين وراءهم جزءاً من معارفهم وتجاربهم وألسنتهم. هذا ما يقودنا للتساؤل عن الكيفية التي تشكلت بها سيرورة هذه الامتزاجات؟

وما هي أثرها على بناء الهوية الثقافية واللغوية في البلدان المغاربية ؟

سنتتبع من خلال ما يلي المسألة اللغوية عبر الزمن، والكيفية التي تشكلت بها هذه التعددية.

**1. الأطر النظرية المختلفة التي تناولت مسألة المزج اللغوي**

تعتبر ظاهرة المزج اللغوي من أهم المواضيع التي تناولها علم الاجتماع اللغوي وكذلك الأنثروبولوجيا اللغوية، من خلال إسهامات العديد من الباحثين، المهتمين بأثر العوامل التاريخية والثقافية على اللغة، وهي بالتالي مفهوم محوري في هذه الورقة البحثية. ولفهم ظاهرة المزج اللغوي، يجب التطرق إلى المفاهيم الأساسية الآتية : التناوب اللغوي، التداخل اللغوي، والاستعارة اللغوية. إن المقاربات السوسيولغوية تدرس التناوب إمّا باعتباره مظهر من مظاهر التكيف والتحول اللغوي، أو كموضوع خاص بالبحث مع توضيح أن التناوب يستعمل لأغراض تواصلية وأنه يتم بصفة منتظمة. لقد اتفق الباحثون على أن التناوب هو مرحلة من مراحل التثاقف، كذلك مرحلة من مراحل اختفاء لغة ما، أو مرحلة من مراحل التطور اللغوي لدى الطفل المهاجر، فبدونها لا يمكن فهم التحولات الحاصلة في لغة ما. إن أعمال كل من غامبرز والمدرسة الوظيفية أوضحوا أن التناوب ليس بتحكمي، أو احتمالي لكن على العكس فهو يشكل استراتيجية اتصالية إضافية يملكها الأفراد أو الجماعات. (Baylon, 1991, p155)

فيما يخص مفهوم الاستعارة اللغوية فلا يمكن الحديث عنه دون الحديث عن التداخل اللغوي، والذي حدده واينريتش بأنه يدل على تغير بنيوي ناتج عن دخول عناصر أجنبية في المجالات الأكثر تنظيماً للغة. (Calvet, 2005, p17) لقد أثارت مسألة الاستعارة اللغوية العديد من النقاشات، لأنها تمثل في نفس الوقت ما هو مخالف، وتمثل كذلك الاتصال والالتحام. وتعتبر الاستعارة اللغوية كأهم ظاهرة سوسيولغوية في كل الاتصالات اللغوية الخاصة بجماعات بشرية جمعتهم نفس الظروف التاريخية، إذ توجد العديد من الدراسات التي اهتمت بهذه الظاهرة من حيث سيرورتها والظروف التي تتم من خلالها، فالمصطلحات المستعارة يمكن أن تحقق حاجة اتصالية ما، وتغطي الفراغ في اللغة التي تتبنى هذه المصطلحات، وبالتالي تصبح عملية الاستعارة ضرورية. غير أن الملاحظات التي يقدمه المختصون، هو أن الكلمات المستعارة لا تندمج بنفس الصورة في الأوساط الاجتماعية، إذ أن عملية اندماجها متغيرة حسب السن،

الجنس، الوسط الاجتماعي، المواقف السياسية، والعادات العائلية إلخ. (Iraquisinaceur, 2004, pp509-510)

يتضح مما سبق أن عملية المزج هي عملية يتداخل فيها الثقافي والاجتماعي والاتصالي، فالظروف التاريخية والثقافية التي تجعل الأفراد والجماعات في احتكاك بينهم،تفرض عليهم وضعيات اجتماعية معينة، يكونون من خلالها مضطرين للتواصل فيما بينهم على اختلاف ثقافاتهم ولغاتهم، مما يجعلهم قادرين على خلق طرق جديدة للتواصل فيما بينهم، من خلال ابتكار لغات موازية هي في الأصل مزيج من ثقافاتهم ولغاتهم المشتركة.

## 2. شمال إفريقيا ومسألة الامتزاجات

### 1.2العنصر البشري في شمال إفريقيا

تظهر القارة الإفريقية بجبالها المتكتلة ومساحاتها المائية الواسعة، التي تفصلها عن أمريكا وعن اسيا بأنها مستقلة جغرافيا. لكن أفريقيا في واقعها ليست منعزلة عن باقي العالم كما ان الأراضي التي تحيط بالبحر المتوسط لها ملامح عائلة قديمة العهد تلفت الانتباه إليها، فبين اسبانيا والشمال الإفريقي وبين البلقان واسيا الصغرى تشابهات لا يستطيع الملاحظ إلا أن يسجلها.

وتطل إفريقيا في جزئها الشمالي على عالم البحر المتوسط، لقد كانت الحضارة الإفريقية التي ظهرت منذ 5000 سنة قبل التاريخ المسيحي ثمرة وسط طبيعي، فمن خلال مصر نفذت تأثيرات حضارة المتوسط إلى داخل القارة الإفريقية. وعندما وصل الفينيقيون الى إفريقيا الشمالية كان سكانها الأصليون يعرفون بتأثير من جيرانهم المصريين، زراعة الشعير والقمح وتربية البقر والغنم والخيل، ويمارسون اعمالاً زراعيةً. فالسيطرة الفينيقية استمرت في إفريقيا الشمالية 15قرنا ولكننا لا نعرف من هذه القرون سوى الاخير منها وهو قرن الانهيار، لقد مارس الحامين الشرقيون تأثيرهم بصورة مباشرة وغير مباشرة على جيرانهم السود في إفريقيا الشرقية والوسطى والجنوبية. كذلك البرابرة من جهتهم، نقلوا الكثير من ملامح مدنية البحر المتوسط الى سود السودان الغربي. وفي ايامنا هذه يبدوالصنف الابيض عنصرا غالبا في إفريقيا من الشواطئ حتى حدود الصحراء جنوبا لذلك يسمى هذا القسم من القارة بإفريقيا البيضاء تسمية مضادة للقسم الاخر المعروف بإفريقيا السوداء. (بولم، 1982، ص 25)

### 2.2.الامتزاجان البشرية في البلدان المغاربية

لقد عرف تاريخ شمال إفريقيا القديم، في آن واحد، عبور واستقرار العديد من الأمم، حاملين لثقافات متعددة، هذا الاحتكاك بين الوافدين وأصحاب الارض خلق نوعا من التداخل بينهم وهذا ما ولّد ظاهرة الامتزاج. إن موضوع الامتزاج هو مسألة واسعة، قد يتطلب دراسة تاريخية، كما أن المفهوم يحتوي على أبعاد متعددة منها ما هو تاريخي، أركيولوجي، أنثروبولوجي، سوسيولوجي، لساني، فلسفي، وإثنولوجي.(Ouachour, 2006, p 47) وللإلمام به سنتتبع خطوات المختصين في هذا المجال.

ويرى العديد من الباحثين أن موضوع الامتزاج مسألة حساسة تتطلب الكثير من الحنكة المعرفية لطرحها، فالباحث مراد يلس يرى أن موضوع الامتزاج موضوعاً محرماً في كل مكان وفي كل زمان وذلك بسبب ارتباطه بالدم والأرض، دم القبيلة الذي يجب المحافظة على جوهره وسلسلة نسبه، فهو يوحي بالأجنبي وبالاغتصاب. إن مفهوم الامتزاج كما قلنا سابقاً مرتبط بنقاء السلالة، إذن فهو مستعار من علم البيولوجيا، وهذا ما طرح اشكالية هل يمكن للثقافات أن تمتزج؟ غير أن هذه العلاقة نتجت من فكرة الاحتكاك الثقافي، وأن كل ثقافة هي مزيج من عناصر غير متجانسة.

يمكن تطبيق مفهوم الامتزاج على كل ما يجمع بين نظامين طبيعتين نَسَبين، إذن الاستعارة البيولوجية تنطبق على أصل الثقافات البشرية. ففي ما يخص أصل البربر فإن هذه المسألة أسالت الكثير من الحبر، غير أن ميشال كيتو يرى أن بروتو البحر الأبيض المتوسط يعتبرون أجداد المغاربة، فقد عاشوا في هذه المنطقة منذ 9000 سنة، فالبربر الذين عاشوا في العصر الحجري الحديث كانوا يملكون ثقافة ودين ولغة خاصة بهم.

لقد أثبت علماء الحفريات وعلماء الإثنولوجيا أن شعوب البحر المتوسط تنامت من الشرق إلى الغرب ابتداءمن (8000) قبل الميلاد، وبهذا فهم يعتبرون البربر، السكان الأصليون لهذه المنطقة. (Quitout, 2007, p24)

ومن خصائص الشخصية الجزائرية حسب تعبير الباحث عبد الغني مغربي . وهي جزء لا يتجزأ من الهوية المغاربية . هو محبتها العدالة وارتباطها الوثيق بالحرية. لقد قدّمت الوفود التي عبرت واستقرت بهذه المنطقة ثراءا متبادلا على المستوى الثقافي، وكان

أكثرها غنى ما قدمته الوفود العربية المسلمة، فمبادئ الاسلام القائمة على المساواة والعدالة ونبذ العبودية، من أهم ما استقطب السكان الأصليين لهذه الديانة، إن هذا التزاوج العميق بين الأمتين العربية والمغاربية طرح مشكلا علمياً على الباحثين في معرفة الأصول الإثنية للمواطنين في المناطق المغاربية المختلفة، فالعرب تبربروا والأمازيغ تعربوا.(Megherbi, 1986, p85)

### 3. التعددات الثقافية واللغوية في شمال إفريقيا عبر التاريخ

تعتبر المسألة اللغوية في البلدان المغاربية رهان حاسم ومهم حسب تعبير الباحثة جوزلين داخلية فهي مجال للصراع والتناحر، هذه هي حقيقة الظاهرة اللغوية اليوم. (Dakhlia, 2004, p11)

إن مسألة الامتزاج تطرح مسألة اللغة المزدوجة، فعبر قرون اضطر المغاربيون استعمال العديد من اللغات الممتزجة بألسن متعددة وهي البربرية، القرطاجية، اللاتينية، العربية، التركية، العبرية الاسبانية، الإيطالية والفرنسية، لتحديد أنفسهم وللتعبير عن علاقتهم بالآلهة وبأمور الحياة الأخرى. (يلس، 2006، ص9) هذه التعددية هي نتاج ظروف تاريخية وسياسية واجتماعية، فقبل وصول العرب إلى هذه المنطقة في القرن السابع، كانت الفينيقية واليونانية واللاتينية والأمازيغية، تشكل اللغات الأساسية المستعملة في المبادلات التجارية بين البلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

فمنذ الحقبة الرومانية يشهد العديد من الكتاب الوثنيين والمسيحيين أن السكان الأصليين لهذه المنطقة تبنوا اللغة اللاتينية في مبادلاتهم السياسية والاجتماعية ونذكر منهم القديس أوغسطين(354-430)الذي يمثل البربري المُتنصر، والذي استطاع فرض اللغة اللاتينية كلغة رسمية للديانة المسيحية. إن تبني الكُتاب البربر للغة اللاتينية، لم يجعلهم يتنكرون لجذورهم بل أضافوا إلى هذه اللغة روح شمال إفريقيا. (Benrabah, 1999, p30)

لقد سجل مجيء العرب قطيعة أساسية على الصعيد الديني، الثقافي واللغوي، فقد اعتبره ميشال كيتو "من أكبر الصدمات الحضارية التي عرفتها المنطقة". (Quitout, pp26-27)

ويضيف بأن الاحتكاكات التي عايشتها اللغة البربرية مع اللغات الأخرى، لم تكن ذات خطورة عليها بقدر ما شكلته العربية والمدعومة بالدين الإسلامي وهذا ما ساعدها على الانغراس المتين في هذه المنطقة. وبعد إعادة احتلال اسبانيا عرفت مدينة بجاية، قدوم مكثف للعديد من الشخصيات المرموقة من رجال القانون والدين والثقافة والعلوم. كما شهدت مدينة تلمسان منذ القرن الرابع عشر نفس الظاهرة وقد تشكلت فيها المدارس التي تلقن الطلاب العلوم القانونية والشرعية، وبرع فيها العديد من العلماء من أمثال ابن خلدون، الذي عاش فترة في الجزائر أين كتب مقدمته الشهيرة. لكن في سنة 1391 ساهمت الوفود الهاربة من شبه الجزيرة الأيبيرية، من يهود في تعمير هذه المنطقة، وأضافت إلى لغاتها، العبرية والاسبانية. وبعد قرن أي عام 1492 هرب مسلمو الأندلس بدورهم لينضموا إلى المدن المغاربية، فأضافوا إليها معارفهم التجارية واللغوية.

وقد زادت وتيرة الهجرة مع القرن السادس عشر وذلك بنزوح معتبر للمهاجرين المسلمين، من الضفة الاسبانية إلى الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، حيث سجلت الفترة الممتدة بين 1609-1610 أكبر نسبة لهذه الهجرة الجماعية الاسبانية، والتي شكلت حسب المختصين، المنطقة المغاربية المعاصرة. لقد أدخلوا معهم تقنياتهم ومعارفهم وكذلك لغتهم القشتالية، أما اللغة التي كانت متداولة في المدن الساحلية والموانئ فكانت اللغة المشتركة. (Maziane, 2004, p79)

وفيما يخص فترة التواجد العثماني في هذه المنطقة التي دامت أكثر من ثلاثة قرون، حذا الأتراك حذو الوندال، إذ لم يحبذوا الاختلاط بالسكان المحليين من بربر وعرب، وحتى في حالة التزاوج لم يكن مسموح للنسل الناتج عن هذه الرابطة والذي سمي بالكولوغلي تقلد مناصب المسؤولية. لكنهم سمحوا بالمقابل بنشر الإسلام ومزيد من تعريب للمناطق الداخلية، وهذا ما جعل المراسلات الدبلوماسية والإدارية تُجرى باللغة العربية المحلية.

ولم يتوقف الوافدون على هذه المنطقة لعدة أسباب، منها ما هو سياسي ومنها ما هو اقتصادي وتجاري، غير أن الاستعمار الفرنسي أراد أن يبرر تواجده في هذه المنطقة لأسباب سماها بالحضارية. لكن ظاهرها كان يقول عكس ذلك، فبعد حادثة المروحة

الشهيرة أرسلت فرنسا جنرالاتها لإحلال سلطتها على هذه " المقاطعات " التي اعتبرتها جزءاً من ترابها.

هذا على المستوى السياسي والعسكري أما على المستوى الاجتماعي، فقد كانت سياستها إزاء أصحاب الأرض مبنية على خمس ركائز على حد تعبير الباحث رابح تركي، التفقير، التجهيل، التنصير، الفرنسة، التجنيس والاندماج في فرنسا. (تركي، 2001، ص66) أمّا على المستوى التعليمي واللغوي فقد كانت السياسة الفرنسية إزاء الدين الإسلامي واللغة العربية واضحة منذ البداية، فقد أسست نظاماً تعليمياً لا يسمح فيه التعلم إلّا باللغة الفرنسية، كما منعت تنقل العلماء المسلمين في المناطق البربرية لتعليم أهلها القرآن والعربية.

وقامت إدارة الاحتلال بعملية فرنسة المحيط الاجتماعي من أسماء الشوارع والساحات العمومية والمعالم الأثرية وأسماء المدن. وبهذا أصبح تواجد اللغة الفرنسية في المحيط المغاربي كثيفاً، لكنه لقي مقاومة شديدة من أصحاب الأرض وهذا ما كلفهم العديد من الشهداء. وبعد استقلال البلدان المغاربية في النص الثاني منالقرن العشرين، أصبح المحيط الاجتماعي المغاربي، يفصح عن تعددية لغوية فريدة من نوعها، تضم كل من اللغات، الأمازيغية، العربية، الفرنسية، مع العلم أن العربية والأمازيغية ليستا خاليتين من الكلمات الاسبانية والتركية والبرتغالية والفرنسية.

**4. ديناميكية الامتزاجات اللغوية في البلدان المغاربية**

لقد عرفت منطقة شمال إفريقيا كما قلنا سابقاً العديد من الوافدين والمحتلين، إذ سجل تاريخها عبور جماعات متعددة لفترات متفاوتة، لقد أنتج هذا التوافد مزيجاً لغوياً، حيث تولدت لغات واختفت أخرى. (p27, Benrabah)

فاللَغات المتواجدة في المجتمعات المغاربية في واقعهم اليومي، في أحاديثهم العائلية وممارساتهم اليومية، باستثناء شريحة من الناطقين باللغة الأمازيغية في كلا من المغرب والجزائر، هي العربية الدارجة (دارجة: مغربية، جزائرية، تونسية) والتي يمكن ادراجها تحت تسمية عربية مغاربية. وهي تسمية نوعية أعطيت لعائلة اللغات المتقاربة في الفهم فيما بينها. وقد استعمل هذا المصطلح في مدرسة اللغات الشرقية منذ عام 1916، لتعيين المنبر المسمى العربية العامية في القرن التاسع عشر. (Caubet, 2004, p10)

وتعد هذه العامية أو الدارجة نتاج احتكاك العربية الكلاسيكية باللغات واللهجات التي صادفتها في مختلف البلدان التي حلّ فيها الدين الاسلامي، أي أنها ناتجة عن وضع ازدواجي(ديغلوسي)، ويقول الباحث عبدو اليمام في هذا الشأن " يجب تحليل ظاهرة الديغلوسيا في منأى عن النص القرآني الذي كان يمثل حجة فقط، إن الانشغال المهيمن آنذاك، هو انتاج معيار لغوي فوق العشيرة وفوق المنطقة. إذ فرضت اللهجات نفسها في كل مكان، وبطريقة خارجة عن السيطرة، فالقوة الممارسة من قبل السلطة المهيمنة، لم تكن قادرة على السيطرة، لأن زمام الأمر أفلت منها." (Elimam, 1997, p88)

لذا يجب تصور مفهوم اللهجات المغاربية من خلال التعايش والمزج، فقدرة هذه اللهجات على استيعاب كل ما هو جديد وصياغته وفق ما يتماشى مع صياغتها اللغوية. إن المحيط المغاربي غني، بالتنوعات اللغوية المختلفة، عربية كلاسيكية، أو عربية عامية، أمازيغية، فرنسية، اسبانية، انجليزية كلها متعايشة وحاصلة على مكانات مختلفة بأشكال رمزية متنوعة، وبأدوار مختلفة عن بعضها البعض. لكنها تطرح في نفس الوقت نقاشات حادة حول مسألة الهوية والسياسات اللغوية الواجب اتباعها.

### 1.4 الو اقع المغاربي والهوية الوطنية

ترتبط مسألة اللغات في البلدان المغاربية ارتباطاً وثيقاً بالهوية الوطنية، وهي نتيجة منطقية للتجربة الاستعمارية التي عاشتها هذه البلدان، وللسياسة الأحادية التي اتبعتها بعد الاستقلال. كما أن عملية الامتزاج التي صاحبت التاريخ المغاربي ولغاته تأثرت بالعوامل السياسية والاجتماعية والثقافية التي سادت هذه البلدان على مرّ الأزمان.

فالواقع اللغوي في البلدان المغاربية هو واقع معقد، لأنه ليس واقع محصور في لغة واحدة، بل هو واقع مركب كما قلنا سابقاً والذي يظهر في سجل مزدوج. وعن تاريخ هذه الوضعية يشير المختصون في علم اللهجات، أنه ليس بإمكاننا فهم وحصر لهجات بلدان المغرب العربي إذا لم ننقب عن تاريخ تنقلات الشعوب وتحركاتهم وتعريب المنطقة، اذ نميز من جهة لهجات ما قبل الهلالية (المسماة لا هلالية من طرف دفيد كوين) والتي تشمل لهجات أول طبقة معربة، ولهجات المدن القديمة، ولهجات الفلاحين وسكان الجبال، ومن جهة أخرى لهجات البدو الذين أستوطنوا متأخرين. فظواهر التعريب في بلدان المغرب العربي أكثر تعقيدا، حيث ما زالت البربرية لغة الام للعديد

من الجزائريين والمغاربة، ويجب علينا ان نأخذ بعين الاعتبار كل اوجه اللهجات المختلطة أو الممزوجة التي تظهر بأشكال وسمات ما قبل الهلاليين. (كوبي، 2005، ص 47)

لقد قام وليام مارسي بالعديد من الدراسات المونوغرافية حول اللهجات المغاربية، حيث تساءل حول نوع الكلام الذي لم يستطع أن يحدد نوعه إن كان بدوياً أوحضرياً، وهذا في مدينة تقرونة في تونس، إذ كان يحمل خصائص لاحظها في مناطق مختلفة كجيجل، تلمسان وفي منطقة جبالة في شمال المغرب. هذه اللهجات الإقليمية تمثل تركيبة من العربية حولت من قبل الفلاحين البربر، سماه وليام مارسي كلام أهل القرى. وعن أصول اللغة الأمازيغية فيرى عبد الغني مغربي أنه عندما نبحث في علاقة المجتمع المغاربي بمصر فتكون الأمور مثمرة، إذ نجد أن اللغة البربرية مستعملة إلى يومنا هذا في كل من سيوا وواحات مصر، كما يضيف أن اللغة العربية واللغات البربرية والقبطية لها أصول سامية. غير أنه من الراجح أن الأمازيغية هي اللغة الأقدم في بلدان المغرب فوثائق علم الآثار الخاصة بمصر القديمة ترجع تاريخ الكتابة الأمازيغية إلى خمسة ألاف سنة، مع العلم أن مسألة أصول الأمازيغ ما زالت تتسم بالافتراضات الإيديولوجية. (Boukouss, 2005, p72)

### 2.4 العوامل المساعدة على الامتزاج اللغوي

يعتبر العامل السياسي من أهم العوامل التي يمكن أن تحدد حياة اللغات ورقيها، وذلك بوضع سياسة لغوية ما، وهذا ما يسمى عملية فرض لغة وطنية من خلال ترقية تنوع لغوي معين أو إعادة إحياء لغة ما أو نشر تنوع خاص بمنطقة ما على المناطق الأخرى مع منع استعمال التنوعات الأخرى المتواجدة.

إن اللغات مثلها مثل الكائنات الاجتماعية الأخرى، يصيبها التغير، وقد يكون هذا الأخير نتيجة لبنياتها الداخلية، أو لاحتكاكها مع لغات أخرى، لكن يمكن أيضاً القيام بأفعال معينة لتغييرها، والتأثير على شكلها وهذا ما يسمى بالتأثير على اللغة والذي يهدف إلى عصرنة اللغة سواء على مستوى الكتابة أو المعجم، تنقية اللغة ، أو حماية اللغة. هناك العديد من الدراسات التي أعطت أهمية لعلاقة اللغة بالسلطة، حيث أنها قابلت بين لغات المتكلمين ولغات السلطة، أي بين لغات المغلوبين ولغات الغالبين. (Sebti, 2004, p14)

ويتميز تاريخ المجتمعات المغاربية بالكثير من الأحداث السياسية والعسكرية التي واجهت بين لغات المستعمرين ولغات السكان الأصليين والذي أثمر عن تزاوج وتمازج بين الألسن، ويعد الاستعمار الفرنسي من أبرز الاستعمارات الذي هدف من خلال سياسته اللغوية إلى ممارسة تأثيرا على اللغات التي كانت متواجدة في هذه المناطق، واستهدف اللغة العربية الفصحى بالدرجة الأولى ولغات الأم بدرجة أقل.

لا يقل العامل الاقتصادي أهمية عن العامل السياسي في عملية الامتزاجات المغاربية إذ يرى معظم المؤرخين والمختصين، بأن التبادلات التجارية خلق نوعا من الديناميكية على المستوى الاقتصادي ولألسني في آن واحد. إذ ترى الباحثة دومينيك كوبي أنه ثمة علاقة وثيقة اقتصادية وثقافية مع موانئ البحر المتوسط. حيث أبرزت دور المدن الأربعة القيروان وقسنطينة والمغرب وتلمسان، فموانئها كانت في انسجام اجتماعي واقتصادي ولغوي مع المدينة. فمارسي يذكر أربعة اقطاب حضرية والتي تعتبر مركز تعريب مبكر في المنطقة المغاربية ومن بينها القيروان بميناءيها سوس والمهدية، وقسنطينة بميناءيها جيجل والقل، والمغرب بموانئها طنجة، باديس والبصرة وأخيرا تلمسان بميناءيها رشقون وحنين، إذن ثلاثة مثلثات شمال- جنوب ومثلث واحد غرب - شرق بالنسبة لتونس. أمّا فيما يخص تعريب الارياف الواقعة داخل المثلث والتي لها علاقة اقتصادية واجتماعية بالمدينة تّم عن طريق المتحضرين أو سكان الحضر. يجمع اللغويون والمؤرخون على أن المناطق المعربة في أول الأمر والتي لا تزال محافظة في معظمها إلى وقتنا الحاضر على لهجات ذات خصائص مشتركة برغم التباعد الجغرافي.

يذكر لويي جون كالفي أن عملية امتزاج اللغات في إفريقيا تزامنت مع تصاعد نسبة التحضر، أي تكون المدن الحضرية، وهذا ما أنتج لغات الاندماج داخل المدينة والتي مست عدة شرائح اجتماعية منهم الريفيين الذين تحولوا نحو العمل في الميدان الصناعي، أو الإداري، أو التجاري.

ويهتم عالم اللسانيات بالمدينة باعتبارها مجال تلتقي فيه الهجرات من مناطق ثقافية ولغوية مختلفة. أمّا فيما يخص مسألة التعدد اللغوي الذي ينتج عن احتكاك مختلف الثقافات واللغات، فهو أمر نسبي، إذ يمكن أن نلمسه في المناطق ذات نسبة تحضر عالية ولا نجده في مناطق أخرى.

ويخبرنا الباحث مواق في مقال حول "اللغات والمجتمع في تاريخ الجزائر أثناء القرن الثامن عشر"بأن من خصائص مدينة الجزائر في هذه الفترة أن سكانها كانوا يشكلون فسيفساء (بشرية)، فظاهرة الامتزاج أو الاختلاط كان واضحاً منذ منتصف القرن السادس عشر، بعد ضم مدينة الجزائر إلى الامبراطورية العثمانية، وبعد مرور قرنين من الزمن أصبحت هذه المدينة تضم عائلات حضرية، وبربرية ومسلمة ويهودية. وهذا ما أنتج تنوعاً ديموغرافياً وثقافياً تجسد في الأغاني والأشعار، وأصبح عنواناً للتعدد والتنوع الثقافي. (Meouak, 2004, p303)

وبهذا يمكن القول أن للمدينة دورا أساسيا في مسألة الامتزاج الثقافي الذي يؤدي بدوره إلى احتكاك التنوعات اللغوية، فينتج عنه عملية التداخل اللغوي والتي تعتبر ميكانزماً أساسياً في عملية الامتزاج اللغوي.

**خاتمة**

إستخلصنا من خلال ما سبق بأن تاريخ الامتزاجات اللغوية في البلدان المغاربية هو جزء لا يتجزأ من تاريخ شمال إفريقيا، فالوضعية الجغرافية التي تحتلها هذه البلدان من خلال إطلالها على حوض البحر الأبيض المتوسط، بثقافاته الثرية وحضاراته العريقة له أهمية مركزية في فهم هذه الظاهرة. كذلك كونها بوابة لإفريقيا نحو أوروبا، كل ذلك خلق لها مجالاً خصباً لعملية الامتزاج وانصهار كل هذه العناصر الثقافية. وتُعد العربية الدارجة أو العامية كإحدى المكونات الأساسية للهجات المغاربية منذ القديم، إذ كانت في اتصال مباشر مع كل التنوعات اللغوية التي حملتها الأمم التي عبرت أو احتلت أو أُستضيفت في هذه المنطقة.

لقد كشفت العديد من الدراسات اللسانية والسوسيو-لسانية عن آثار هذه التنوعات في العربية العامية بلهجاتها المختلفة، وكانت هذه التنوعات ذات تأثيرات سبقت تأثير اللغة الفرنسية، نذكر منها ما تركته الحضارة الفارسية، فيما يخص الكلمات المستعملة في مجال اللباس، المطبخ، السلاح، كذلك ما خلفته اللغات ذات الأصل اليوناني، والروماني.

أمّا اللغة الأمازيغية فقد قدمت للعربية العامية قاموساً غنياً بالكلمات، في مختلف أنشطة الحياة اليومية في مجال الزراعة، كأسماء النباتات والحيوانات والأدوات المنزلية.

كما أن اللغة الاسبانية خلفت في العربية العامية مصطلحات بحرية وذات طابع دبلوماسي، وقد كان للغة الفرنسية التأثير الأكبر فيما بعد.أمّا فيما يخص مكانتها أثناء الاستعمار الفرنسي فقد كان لها وظائف اجتماعية واتصالية بين عموم الناطقين بها، باعتبارها اللغة الأم للعديد منهم غير أنها كانت أكثر قدرة على استيعاب اللغة الفرنسية وهذا ما أصبح واضحاً بعد الاستقلال. إن ديناميكية الامتزاجات زادت وتيرتها مع التقدم العلمي والتكنلوجي وهذا ما يستدعي المزيد من الدراسات المتخصصة لمعرفة الآثار النفسية والاجتماعية المتدخلة في عملية المزج اللغوي، وفي بنية اللغات الأم، فالاهتمام بهذا النوع من البحوث يفتح الآفاق واسعة أمام السياسات والتخطيط اللغوي.

## المراجع


1. تركي رابح، 2001. الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الاصلاح الاسلامي والتربية في الجزائر، ط 5 . الجزائر: المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار.
2. دنيز بولم، 1982. الحضارات الافريقية. ترجمة نسيم نصر، بيروت: دار منشورات عويدات.
3. دومنيك كوبي، 2005. « استبيان علم اللهجات ». ترجمة مالك عز الدين، دفاتر: تراث تمثلات اجتماعية، مركز البحث في الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، تحت ادارة حاج ملياني، الرقم 10.
4. يلس مراد،2006. «الامتزاجات المغاربية». ترجمة محمد داود، مجلة إنسانيات، السنة العاشرة، عدد مزدوج 32-33 .
5. Baylon Christian, 1991. *Sociolinguistique, société langue et discours*, Paris: Nathan.
6. Benrabah Mohamed, 1999. *Langue et pouvoir en Algérie histoire d'un traumatisme linguistique.* Paris : Séguier, 1999.
7. Boukouss Ahmed, 2005. *Dynamique d'une situation linguistique: le marché linguistique au Maroc*. In http : // www.rdn50.ma/fr/pdf/contributions/Gt9-5.pdf. Consulter le 25-12-2019.
8. Calvet Louis-Jean, 2005. *La sociolinguistique*, Que sais-je ?, 5ème édition. France, PUF.
9. Caubet Dominique, 2004. *Les mots du bled*, Paris : L'Harmattan.
10. Caubet Dominique, 2004. «Dialectologie et histoire au Maghreb : pour une sociolinguistique historique ». In Dakhlia Joceline et autres, *Trames de langues usages et métissages linguistiques dans l'histoire du Maghreb*, Paris: Maisonneuve & Larose

11. Dakhlia Joceline, 2004. « L'histoire parle-t-elle en langues ». In Dakhlia Joceline et autres, *Trames de Langues Usages et métissages Linguistiques Dans L'histoire du Maghreb*. Paris : Maisonneuve & Larose.

12. Elimam Abdou, 1997. *Le Maghribi Langue trois fois millénaire*. Alger : ANEP.

13. Iraqui Sinaceur Zakia, 2004. «Histoire et emprunt linguistique ». In Dakhlia Joceline et autres, *Trames de Langues Usages et métissages Linguistiques Dans L'histoire du Maghreb*. Paris : Maisonneuve & Larose.

14. Maziane Leïla, 2004. «Le vocabulaire maritime de salé-le-neuf aux 17 et 18 siècles In Dakhlia Joceline et autres, *Trames de langues usages et métissages linguistiques dans l'histoire du Maghreb*, Maisonneuve & Larose.

15. Megherbi Abdelghani, 1986. *Culture et personnalité Algérienne de Massinissa à nos jours*. Alger : ENAL- OPU.

16. Meouak Mohamed, 2004. « Langues, société et historie d'Alger au 18 siècle d'après les données de venture de Paradis (1789-1799) ». In Dakhlia Joceline et autres, *Trames de Langues Usages et métissages Linguistiques Dans L'histoire du Maghreb*. Maisonneuve & Larose

17. Ouachour Fatima, 2006. «Approche conceptuelle du métissage en Afrique du nord ancienne ». In revue *Insaniyat,* Métissage maghrébins, 10e année- n° 32-33.

18. Quitout Michel, 2007. *Paysage linguistique et enseignement des langues au Maghreb Des origines à nos jours, L'amazighe, L'arabe et le Français au Maroc, en Algérie, en Tunisie et en Libye*. Paris : L'Harmattan.

19. Sebti Abdelahad, 2004. «Espace des disciplines et temps des langues». In Dakhlia Joceline et autres, *Trames de langues usages et métissages linguistiques dans l'histoire du Maghreb*, Maison neuve & Larose.

20. Yelles Mourad, 2006. «Métissage entre langues et racines» ; In revue *Insaniyat*: Métissage maghrébins, 10e année- n° 32-33, p 20.